ذكرى الاستاذ جبر ضومط

اقامت جامعة بيروت الاميركية حفلة تذكارية للمرحوم الاستاذ جبر ضومط في اوائل شهر مارس الماضي التحق الرئيس صدج بكلمة انكليزية اعرب بها عن الخسارة التي اصابت بالجامعة بوفاة كبير اساتذتها وذكر طرفاً من سيرة الفقيد . وتلاه الاستاذ بولس الخولي متكلماً بلسان عمدة الجامعة ثم تعاقد خطاب افتتاحي مدير مجلة الكلية تلاكلمة وشذرات من رسائل بعض تلاميذ الفقيد وهم السادة فضلو الخوراني وفارس بك الخوري واحمد سامح الخالدي وفؤاد صروف والدكتور توفيق كنعان والدكتور فيليب حتي والدكتور شريف عسيران . ثم عقبه موسى نمور بك وزير داخلية لبنان فسليمان بك ابو عز الدين فسماحة الشيخ محمد الجسر فالاستاذ انيس الخوري القدسي . وقد اخترنا ما يلي من الخطب التي تليت في هذه الحفلة

كلمة عميدة الجامعة الاميركية ببيروت

بوفاة الاستاذ ضومط تنطوي حياة أول معلم وطني تولى التدريس وترقى الى كرسي الاستاذية الكاملة في هذه الجامعة . أربع وثلاثون سنة متوالية قضاها الاستاذ ضومط بتعليم الناشئة العربية وتهذيبها في هذه الجامعة — درّس علوم اللغة بأسرها وحبّر المقالات المفيدة وألّف الكتب المدرسية ونشرَ المباحث القيّمة في كثير من الجرائد والمجلات . وكان مثال المعلّم الصالح في حبه لتلاميذه وإرشادهم إياهم كما كان مخلصاً في خدمته لهذه الجامعة أميناً في قيامه بالواجب

ولد الفقيد في برج حمود في ١٨٥٩ من أبوين فاضلين ولكنهُ مُنيَ بفقد والده وهو في عامه الثاني فقامت والدته بتربيته وأظهرت من حصافة الرأي مالم يظهرهُ الكثيرون من معاصريها في تلك الايام — أرسلت وحيدها وهو لم يتجاوز الثانية عشرة الى مدرسة

انتقل منها الى هذه الجامعة ودخل كلية العلوم والآداب ونال رتبة بكلوريوس علوم في ١٨٧٦ وكانت الطبيعة أعدتهُ بالمواهب العقلية والاخلاقية كيما يكون معلماً . وكان قد باشرَ التدريس في مسقط رأسه وهو في الحادية عشرة من عمره — فلما أحرز البكالوريا قصد الى حمص وعلّم في مدرسة المرسلين الاميركية نحو نصف سنة ثم انتقل منها الى طرابلس وتولى التدريس في مدرستي الاميركان للصبيان والبنات مدة ثماني سنوات

وجاء عام ١٨٨٥ وكانت بريطانيا العظمى في حاجة الى تراجمة للحملة السودانية التي كانت قد عبأتها لانقاذ غردون باشا فتطوّع الاستاذ ضومط وتعيّن ترجماناً في تلك الحملة وعاد في الحول التالي الى بيروت وشرع يدرس العبرانية والسريانية استعداداً للسفر الى احدى جامعات أوربا وكان من نتاج درسه هاتين اللغتين انهُ وضع في تلك الاثناء باكورة مؤلفاته

اللغوية كتاب «خواطر في اللغة العربية» الكتاب الذي تناول فيه أكثر المبادىء الأولية التي سارت عليها اللغة في نشوئها ، وكانت أبحاثه فيه مبتكرة لم يسبقه اليها أحد في العالم العربي

ثم سافر الى انجلترا وأقام في لندن مدة من الزمن يتردد الى المتحف البريطاني وبعض المكاتب الشهيرة — وبعد ذلك عاد الى الوطن فدعته عمدة مدرسة كفتين الارثوذكسية لتدريس الصفوف العلمية فيها فلبى دعوتها واستمر ثلاث سنوات في خدمته هذه الى أن انتدبته هذه الجامعة لادارة الدروس العربية فيها وكان ذلك سنة ١٨٨٩ على أثر استقالة سلفه الاستاذ يوسف افندي اقيموس

وقام الاستاذ ضومط بادارة الدروس واعباء التعليم والتهذيب خير قيام مع ما كان يلاقيه مدرسو العربية من مثبطات الهمم من قبل أولياء الطلبة أو من الحكومة الحميدية في ذلك العهد

وفي السنة ١٨٩٢ اقترن بالآنسة هدى النصيبي فكانت خير مثال للإمرأة الفاضلة والأم الحكيمة في معونتها لزوجها وتربيتها لأولادها

ومما لا ريب فيه أن نجاح الاستاذ ضومط في تدريسه وتحبيب اللغة العربية الى تلاميذه مع صعوبتها وقلة رغبتهم في درسها ، لانصرافهم الى درس اللغات الاجنبية — انما كان ناتجاً عن الخطة الرشيدة التي سار عليها في التدريس — خطة خالف بها التقاليد المألوفة وكان في طليعة الداعين الى الخروج على المنقول الذي لا ينطبق على المعقول . وقدرت هذه الجامعة مواهبه العقلية وجهوده التعليمية فمنحته رتبة معلم علوم سنة ١٩٠١ ورفعت مقامه الى كرسي أستاذية اللغة العربية سنة ١٩٠٩ على أثر اعلان الدستور العثماني

ومما يدل على اقتدار الاستاذ ضومط واجتهاده العلمي أنه مع كونه كان يلقي الدروس العربية بنفسه على الصفوف العالية ويقوم بالواجبات المدرسية المتعددة — وكان ربح عائلة كبيرة — فانه تمكن مع كل ذلك من وضع المؤلفات النفيسة في كل الموضوعات التي درسها فألف كتاب الخواطر الحسان في المعاني والبيان ثم أردفه بكتاب فلسفة البلاغة فكتاب الخواطر العراب في النحو والاعراب . ووضع بالاشتراك مع الاستاذ الحولي كتاب «فك التقليد» في علم الصرف . وكان في كل تأليفه هذه مبتدعاً لا متبعاً . وبقي الى آخر أيامه يكتب المقالات النفيسة فتنشرها له أرقى المجلات العربية

وكان آخر ما نشره بحث في من هو كاتب سفر التكوين . وقد جمعت مقالاته التي نشرت في مجلتي المقتطف والهلال وطبعت معاً في كتاب واحد . وفي السنة ١٩٢٢ تقاعد عن التدريس فأطلقت عليه عمدة الجامعة لقب أستاذ شرف للغة العربية

وفي أواخر نيسان (ابريل) ١٩٢٨ احتفل تلاميذه وأصدقاؤه الكثيرون بيوبيله الذهبي احتفالا

دلَّ على مكانته السامية في قلوبهم، ومنحته في ذلك اليوبيل جمهورية لبنان وسام الاستحقاق السوري

وكان لا يزال يتمتع بصحته المعتادة حتى نزل من مصيفه في سوق الغرب بأوائل هذا الخريف وجاء الشتاء بوافدة الانفلونزا فأصابته واشتدت وطأتها عليه فأطفأت سراج حياته ليل الاحد في الـ ١٩ من كانون الثاني (يناير) فأقيمت له جنازة مهيبة وسير بنعشه مرفوعاً على أيدي تلاميذه ومحبيه الى منتدى الجامعة حيث صلي عليه ثم نقل الى سوق الغرب يشيعه موكب كبير من زملائه وتلاميذه وأصدقائه ودفن بكل احترام في مدفن عائلته

هكذا انقضت حياة الاستاذ ضومط بعد أربع وخمسين سنة قضاها في خدمة بلاده معلماً صالحاً ومهذباً حكيماً وكاتباً مفكراً ومؤلفاً مجدداً وأباً روحيًّا لالوف من تلاميذه ومريديه

ان عمدة الجامعة قررت تسجيل كلمتها هذه في سجلها الخاص وتقديم نسخة منها لأرملة الاستاذ ضومط وأولادها اعترافاً بفضل الفقيد وتخليداً لذكره

من كلمة سليمان بك البرجز الريس

كان رأيه في التدريس تنشئة التلميذ على الاعتقاد ان علوم اللغة خاضعة لاحكام العقل وان آراء النحاة حتى المشهورين منهم ان لم تطابق المنقول عن اللغة في ما يحتاج الى النقل او المعقول في ما يحتاج الى العقل فهي مما لا يعتد بها — وخلاصة آرائه تفتح باب الاجتهاد امام علماء العربية ومفكريها حتى تجاري لغتهم في نموها وارتقائها سواها من اللغات الحية. رأى ذلك وهو العليم الخبير بان لغة العرب كالامة العربية ظهرت في شبه الجزيرة غرساً صغيراً واخذت في النمو تدريجيًّا الى ان غدت دوحة كبيرة لما تكاثر عدد ابنائها وخرجوا من بلادهم غازين فاتحين حتى بلغوا شواطىء الاوقيانوس الاطلانتيك فكوّنوا مدنية جديدة واحيوا رميم مدنيات قديمة. ففي ظلال اعلام تلك الامة الفاتحة وتحت رعاية دولها القوية الراقية في الشام والعراق ومصر والاندلس توطدت دعائم اللغة العربية واتسع لطائفها وتنوعت الفاظها الوضعية وتعابيرها ومصطلحاتها العلمية والفنية طوعاً لما اقتضاه سير العلوم والفنون في تلك العصور. وان سير العلوم وسعة انتشارها في هذا العصر يجعلانها اشد احتياجاً الى لغة ذات سعة ومرونة مما كانت عليه في عهد الامويين والعباسيين والفاطميين واذا كانت تصاريف هذا الزمان قد ضنت على العرب بقيام دولة قوية تجمع شملهم وتبعث روح النشاط في لغتهم فان النفوس العربية قد استيقظت من غفلتها وهبت الى النهوض تدفعها الغيرة على مكانتها بين الامم كما يدفع البخار الجاريات في عرض البحار. والعرب باسرهم من خليج فارس الى جبل طارق يشعرون بانهم وحدة قومية علمية. ودولتا القومية والعلم فوق كل دولة. كما ان قوة الصحافة في هذا العصر وقوة غيرها من وسائل النشر التي تربط

المتكلمين بلغة واحدة ربطاً وثيقاً لا تضاهيهما قوة حتى ولا قوة العباسيين في أيامهم الذهبية ايام هارون الرشيد والمأمون . فان كبار رجال الصحافة والتأليف هم قادة الامة ومصابيح هداها واذا هم لم يتناولوا المواضيع التي طرقها الاستاذ ضومط بالبحث والتحليل فانهم يتابعونهُ عملياً في ما يكتبون ترجمةً وانشاءً لان تلك هي الخطة الطبيعية التي لا محيد عنها والتي سمت عليها أغنى اللغات الحية في طريق النشوء والارتقاء

ان خطة الاستاذ المبتكرة قد لقيت احياناً معارضة من بعض العلماء غير ان تعارض الافكار زاد الحقيقة وضوحاً والافكار تنبهاً الى ضرورة تحرير العقول من عبودية التقليد . كما ان فريقاً كبيراً من العلماء الاعلام اكبر عمله وجرأته في قول الحق فوضعه في مرتبة كبار رجال العلم المبتكرين في الغرب . فقد قال المرحوم الدكتور يعقوب صروف : ان الاستاذ ضومط بحث في نشوء اللغة العربية بحثاً مبتكراً وممهداً لعمل اعده من انفع الاعمال. وقال عنهُ ايضاً : « هو مثل ورنر وليل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك وداروين في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعض ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء » وكل واحد من هؤلاء العلماء الذين اتى الدكتور صروف على ذكرهم كان من المفكرين المبتكرين وبعضهم من مؤسسي مذاهب علمية جديدة

ومن المعجبين بمباحث الاستاذ المرحوم واماطته اللثام عن وجه الحقائق اللغوية الرئيس الجليل الدكتور صوجي رئيس هذه الجامعة . ففي كلامهِ عنهُ في يوبيله الخمسيني قال: « فاذا رغب الشرق في أن يهب من سنة كراه وتفهم المبادىء الخطيرة التي أبلغت الغرب ما بلغهُ من السؤدد والقوة والفلاح وجب على بنيه ان يتذرعوا بكل وسيلة ممكنة للتوصل الى الحقائق بلا خوف ولا وجل فيفتح امامهم باب الاختراع والترقي على مصراعيه . وبما ان الاستاذ ضومط هو أول مهندس لغوي شقَّ هذا الطريق فهو جدير بشكرنا وتناثا »

فما أليق هذا اللقب لقب « المهندس اللغوي » بفقيدنا الكريم ؟ ان المشابهة تامة بين ماتقتضيه هندسة الطرق من التمهيد والنسف والتكسير وبين أعمال الاستاذ ضومط الذي مهد طرق المباحث اللغوية وكثيراً ما كان يضطر في اثناء ذلك الى نسف معاقل الجمود وكسر قيود التقليد

كلمة رئيس تحرير هذه المجلة

في جوّ كل اجتماع تذكاري تشيع معاني الحزن واللوعة والتفجع على الراحل الكريم . فتنقبض النفوس وتجم الوجوه وتكتئب العيون وتصعّد الزفرات لان الكائن الذي كان يملأ الاجتماعات بوجوده فيها ، ويثير المشكلات بنور عقله الكشاف ، ويبعث القوة والحكمة في ساعات الضعف أو التهور ، قد طوتهُ الارض !

اما انا فحزني شديد لانه يتيح لها فرصة الورود من معين فياض فاكتفت بالوشل!

ان الطبيعة تفجر لنا بين زمن وآخر ينبوعاً متدفقاً من ابداعها . فتبعث الى الناس بكون كامل في حيز انسان تنبثق قوته من العقل فكراً وحكمة ، ومن الشخصية وقاراً وقدوة ، ومن الخلق العالي ، مثلاً اعلى يبعث في النفس التي تتسع له ما يرفعها عن مستوى المعنى الترابي ويقربها من جوهر الآلهة . ثم تسترد الطبيعة هبتها ، فتجفف ينبوعها في مكان لتفجره في مكان آخر . وتطفىء مصباحها في قوم ، لتبدد بها غياهب قوم آخرين . فتندب فعلها حاسبين خطأ ان الراحل جدير بالندب والبكاء لان النور في حياته تبدل بالظلمة والحقيقة انما تندب غفلتنا ، ونحن لو عقلنا لبدلنا بالاعتبار حزنا وبالتمجيد والتبجيل ندبنا وتفجعنا

من هنا — نحن اصدقاء جبر ضومط وزملاءه وتلاميذه وقراءه — لا يتوق اليوم الى عودة الايام سيرتها الاولى ، اذ كان يجتمع « بالمعلم جبر » في غرفة التدريس او جمعية الخطابة او رحاب الجامعة او داره المضياف او على صفحات الرسائل الخاصة والعامة ، لينعم بصداقته المرشدة ويرشف من نبع علمه الفياض . من هنا لا يتوق الى ان يوري زناد المناظرة مع « المعلم جبر » ليقتدح من ذلك العقل المتقد ، الذكي ، النافر من الجمود ، الراغب في التطور المتزن ، المدرك ان كل حركة ليست حركة الى الامام ، شرراً يفري غياهب المشكلات العقلية النفسية والاجتماعية . من هنا ، لا يتوق الى اصلاء نار المجادلة معه لكي يرى في عينيه ذلك الالق الذي يدل على غضبة للحق ، وثبات على المبدإ واخلاص في اسداء النصح . من هنا لا يتحسر لانه لم يدون في مذكراته افكاراً شاردات كان يفوه بها « المعلم جبر » في كل حديث ملخصاً فيها نتاج خبرته وبحثه طيلة نصف قرن او اكثر من ممارسة البحث والتعليم والتأليف على الدرس والمختبر

قد يستطيع الفلكي ان يقيس اجرام الكواكب وابعادها على عظمتها واتساعها ، والطبيعي دقائق الجوهر الفرد على دقتها وتناهيها في الصغر ، والبيولوجي قوة الذكاء ، والجيولوجي عمر الارض . ولكني لا اعلم ان احداً يستطيع ان يقيس اثر المعلم الصالح في نفس تلميذه ، ولا اثر الصديق المرشد في حياة صديقه ، ولا اثر المفكر الجريء في شعب كامل ينحرف به عن الطرق المسدة لريادة مجاهل الفكر الانساني . فكيف بنا اذا اجتمع المعلم والصديق والرائد في شخص واحد وكان لهذا الشخص الواحد الوف التلاميذ والاصدقاء والاتباع في كل انحاء الارض يأخذون أخذه ويتبعون تعاليمه !

فارفعوا رؤوسكم فخراً أيها المجتمعون هنا ! ان معلمكم يا تلاميذه . ان صديقكم يا أصدقاءه . ان احد روادكم يا أبناء اللغة العربية حيٌّ بأثره الحي فيكم

الانثروبولوجي بل ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً العامل الاجتماعي الذي يبحث في منشآت الانسان بالنظر اليه كفرد في مجموع منتظم . وأما العامل الخامس فقد استنبط له لفظ الماني يلخصهُ هو لفظ « زينجيست » أي روح العصر الذي يدفع بالانسان في هذه الجهة أو تلك رغماً عن العوامل الاخرى

ومن المتعذر في اكثر الاحيان ان نعرف الباعث على ظاهرة من الظواهر العمرانية . هل هو العامل الانثروبولوجي او العامل الاجتماعي او كلاهما معاً ؟ والراجح ان الفشل في الوصول الى فلسفة صحيحة للتاريخ يعود الى ان فلاسفة التاريخ اهملوا العناية بهذه العوامل العمرانية عناية متساوية . فاكثر المؤرخين والفلاسفة يحسب العامل النفسي اقوى العوامل في التاريخ وان كل ما سواه يعود الى عامل اقتصادي يشتمل على نفر من العوامل الانثروبولوجية والاجتماعية والجغرافية . ومثالهم في ذلك مثل الفسيولوجي الذي يعنى وهو يضع كتاباً فسيولوجياً بوصف الجهاز العصبي وصفاً سهلاً ثم يعالج جهاز الدورة الدموية وجهاز التنفس كأنها جهاز واحد ثم لا يعنى من بعد ذلك كله بالتغذية والتناسل الا عناية سطحية

وقد اطلعنا حديثاً على مقالة موضوعها « أثر الاقليم في التاريخ البشري » للاستاذ جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير واستاذ علم الحيوان في جامعة بلندن فآثرنا نقلها لقراء المقتطف . وقد استعملنا لفظة اقليم ترجمة للفظة الافرنجية Climate المأخوذة من لفظة « كليا » Clima اليونانية ومعناها الاصلي انحراف او ميل استعملها اليونان لتدل على ميل محور الارض . فالتغير في « الكليا » كان ينشىء تغيراً في مركز خطوط العرض بالنسبة الى الشمس وهذا كان يحدث بدوره تغيراً في احوال الجو وفصول السنة والفصول . فلفظة اقليم اللفظة العربية مأخوذة عن الاصل اليوناني باجتماعها في المعجم [illegible] فوجدنا بعضها يقول « اقليم يونانية معربة » واذاً فلفظة اقليم يجب أن تدلَّ كلَّ الدلالة على المقصود من لفظة Climate وهو متوسط حالة الجو . أما الطقس weather فيدلُّ على حادث واحد من سلسلة الحوادث الجوية التي يتألف منها الاقليم . لنعود الآن الى مقالة الاستاذ هكسلي قال :

زعمت طائفة من الكتَّاب في العصر الاخير الى كتابة التاريخ من وجهه الاقتصادي زاعمين ان أعظم وجوه التطوُّر في تاريخ العمران انما تستند الى تطور الاحوال الاقتصادية في العصور المختلفة . على ان عملهم هذا لا يرجع الى الاصول الاصلية التي شيِّد عليها صرح العمران البشري . لاريب في ان فكر الانسان ومعيشتهُ الاجتماعية يقومان على معيشته الاقتصادية . ولكن المعيشة الاقتصادية بدورها تقوم على أركان بيولوجية . فالاقليم من